المحاضرة الرابعة:أدبية التقديم والتأخير في القرآن الكريم

التقديم والتأخير موضوع نحوي وبلاغي في الوقت نفسه، ولكن يختلف منظور كل علم إليه.

أولًا: التقديم والتأخير في علم النحو

يدرس النحوي التقديم والتأخير من حيث ترتيب عناصر الجملة، وجواز تقديم بعضها أو وجوبه، وأثر ذلك في الإعراب.

مثال:

* زَيْدٌ فِي الدَّارِ: المبتدأ متقدم والخبر متأخر.

* فِي الدَّارِ زَيْدٌ: الخبر شبه الجملة متقدم والمبتدأ متأخر.

يسأل النحوي: هل يجوز تقديم الخبر؟ وهل التقديم واجب أم جائز؟ وما إعراب كل عنصر؟

ثانيًا: التقديم والتأخير في علم البلاغة

يدرس البلاغي التقديم والتأخير من حيث الدلالة والغرض البلاغي الذي اقتضى العدول عن الترتيب المعتاد.

قال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ \[الفاتحة: 5\].

* نحويًّا: (إِيَّاكَ) ضمير منفصل مبني في محل نصب مفعول به مقدم، و(نَعْبُدُ) فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره نحن.

* بلاغيًّا: تقديم المفعول به (إيَّاكَ) يفيد الاختصاص والقصر، أي نعبدك وحدك ولا نعبد غيرك.

ثالثًا: أين يُدرس التقديم والتأخير في البلاغة؟

يُدرس في علم المعاني، ولا سيما في مباحث أحوال المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل.

النحو يسأل: هل يجوز تقديم هذا العنصر؟ وما حكمه الإعرابي؟

أما البلاغة فتسأل: لماذا قُدِّم هذا العنصر؟ وما الدلالة التي أضافها تقديمه؟

وهنا مسألة علمية مهمة أود الإشارة إليها: ليس كل تقديم وتأخير في النحو يستلزم غرضًا بلاغيًّا مستقلًّا، كما أن التقديم لا يفيد القصر في جميع المواضع. وإنما تُحدَّد دلالته بحسب السياق.

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الإكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلم للعناية بها والإهتمام دون تبيين مواطن هذه العناية وسبب هذا التقديم.

فإذا قيل لك مثلاً: لماذا قدم السماء على الأرض هنا؟ قلت لأن الإهتمام بالسماء أكبر ثم إذا قيل لك ولماذا قدم الأرض على السماء في هذه الآية قلت لأن الإهتمام بالأرض هنا أكبر، فإذا قيل ولماذا كان الإهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الإهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الإختلاف بين الموطنين بحيث تبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً. وكذلك بقية المواطن الأخرى. أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والإهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام. والإكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف

الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف إذ كل واحد يقول لك: إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق.

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلم وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن كما في غيره الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم الذي وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن كما في غيره الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم الذي وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

- تقديم اللفظ على عامله:

ومن هذا الباب: تقديم المفعول به على فعله، وتقديم الحال على فعله، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما، وتقديم الخبر على المبتدأ، ونحو ذلك. وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص؛ فقولك: «أنجدتُ خالدًا» يفيد أنك أنجدت خالدًا، ولا يفيد أنك خصصت خالدًا بالنجدة، بل يجوز أنك أنجدت غيره أو لم تنجد أحدًا معه. فإذا قلت: «خالدًا أنجدتُ»، أفاد ذلك أنك خصصت خالدًا بالنجدة، وأنك لم تنجد أحدًا آخر.

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥ــ٦]. فقد قُدِّم المفعول به «إياك» على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة، دون فعل الهداية، فلم يقل: «إيانا اهدِ» كما قال في الأولين؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى، فلا يُعبد أحد غيره، ولا يُستعان بغيره.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقوله: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فقد قُدِّم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين؛ وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى.

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فقد قُدِّم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص؛ وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده، والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يُقدَّم مفعول الهداية على فعله، فلم يقل: «إيانا اهدِ» كما قال: «إياك نعبد»؛ وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص، إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي، ولا تهدِ أحدًا غيري، أو خصني بالهداية من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني، واشفني، وعافني. فأنت تسأل لنفسك ذلك، ولم تسأله أن يخصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية، فلا يرزق أحدًا غيرك، ولا يشفيه، ولا يعافيه.

التقديم بالرتبة

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكنز الذهب والفضة (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) (التوبة) فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهور قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم فتدرج حسب الرتبة.

التقديم بحسب الكثرة والقلة

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله (أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) البقرة) فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي الصلاة تكون في كل أرض طاهرة أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم إن كل راكع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس فيه ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة. ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) البقرة) فالطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) (الحج) فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات ثم السجود وهو أكثر ثم عبادة الرب وهي أعمّ ثم فعل الخير.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) آل عمران) فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ثم السجود وهو أخص وأقل ثم الركوع وهو أقل وأخص.

أدبية النص القراني في قول الآية الله تعالى:

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

]التوبة[35 :

ولا يكتمل معناها إلا بضمّها إلى الآية السابقة التي ذكرت الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله.

أولًا: المعنى الإجمالي

في يوم القيامة تُوقد النار على الأموال التي كنزها أصحابها ومنعوا حقَّ الله فيها، حتى تشتد حرارتها، ثم يُكوى بها ظاهر أجسادهم: الجباه والجنوب والظهور.
ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: هذا هو المال الذي جمعتموه وظننتم أنكم تدخرونه لمصلحتكم، فتحوّل إلى أداة عذاب لكم؛ فباشروا الآن جزاء ما داومتم على كنزه ومنع حقه.

والوعيد، في أشهر أقوال المفسرين، متعلق بالمال الذي لم يُؤدَّ حقه الواجب، لا بمجرد الادخار المشروع؛ فالطبري رجّح أن المال الذي أُدّيت زكاته لا يدخل في الكنز المذموم، وإن كان كثيرًا، وأن ما لم تؤدَّ زكاته داخل فيه وإن لم يكن مدفونًا .تفسير الطبري للآية السابقة

ثانيًا: المعنى اللغوي والاستعمال القرآني للمفردات

1.﴿يَوْمَ﴾

- **لغويًا :**مقدار من الزمن، وأصله الزمن الممتد من طلوع الشمس إلى غروبها، ثم توسع فيه فاستعمل لكل مدة أو مرحلة زمنية.
- **في القرآن :**ورد بمعانٍ منها:
  - اليوم المعتاد: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾.
  - المدة أو المرحلة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.
  - يوم القيامة، وهو المراد هنا.
- **دلالته في الآية :**استحضار وقت الحساب كأنه حاضر مشاهد. وهو منصوب على الظرفية، ومتصل بالعذاب الأليم المذكور في الآية السابقة؛ أي: لهم عذاب أليم يوم يُحمى عليها .التحرير والتنوير

2.﴿يُحْمَىٰ﴾

- **الجذر :**ح م ي.
- **لغويًا :**حَمِيَ الشيء إذا اشتدت حرارته، وأحميت الحديد إذا أدخلته النار حتى صار شديد الحرارة.
- **صرفيًا :**فعل مضارع مبني للمجهول.
- **في القرآن :**لفظ ﴿**يحمى**﴾ بهذا المعنى لم يرد إلا هنا، أما الجذر فجاء في:
  - الحرارة: ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾.
  - العصبية والأنفة: ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.
  - نوع من أنعام الجاهلية: ﴿وَلَا حَامٍ﴾.
- **دلالته هنا :**توقد النار على الذهب والفضة حتى يبلغا أقصى درجات الحرارة. وقد ورد جذر «ح م ي» في القرآن ست مرات بصيغ مختلفة، أما الفعل نفسه فلم يرد إلا في هذه الآية .المعجم القرآني للجذر

3.﴿عَلَيْهَا﴾

- **على :**حرف يفيد الاستعلاء.
- **الهاء :**تعود على الذهب والفضة المذكورين في الآية السابقة، باعتبارهما أموالًا أو دنانير ودراهم.
- **الدلالة :**لا يراد مجرد ملامسة النار للمال، بل تمكّن الحرارة منه وإحاطتها به.

4.﴿فِي﴾

- **لغويًا :**حرف يفيد الظرفية.
- **دلالته هنا :**إحاطة نار جهنم بالكنوز؛ فالجمع بين ﴿عليها﴾ و﴿في نار جهنم﴾ يصوّر المال موضوعًا داخل النار، والنار موقدة عليه، فيتحقق كمال الإحماء.

5.﴿نَارٍ﴾

- **لغويًا :**اللهب المحرق والحرارة المشتعلة.
- **في القرآن :**تأتي بمعانٍ منها:
  - النار الدنيوية: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.
  - نار العذاب الأخروي، وهي الأكثر في سياقات الوعيد.
  - وقد ترد النار الدنيوية علامةً أو وسيلةً، كما في قصة موسى.
- **دلالتها هنا :**نار العذاب الأخروي، وقد أضيفت إلى جهنم لتعيينها وتفخيمها.

6.﴿جَهَنَّمَ﴾

- **لغويًا وقرآنيًا :**اسم عَلَم على دار العذاب في الآخرة.
- **دلالته :**الاسم لا يصف مجرد نار عابرة، بل يستحضر عالم العقوبة كله بما فيه من هول واستمرار.
- **نحويًا :**مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة لأنه ممنوع من الصرف.

7.﴿فَتُكْوَىٰ﴾

- **الجذر :**ك و ي.
- **لغويًا :**الكيُّ إحراق الجلد بحديد أو جسم شديد الحرارة، ويُستعمل للعلاج أو للعقوبة ووضع العلامة.
- **صرفيًا :**فعل مضارع مبني للمجهول.
- **في القرآن :**لم يرد هذا الجذر إلا مرة واحدة، في هذه الآية .المعجم القرآني للجذر

- **دلالته :**ليس المراد مجرد مسّ النار، بل إحراق يترك أثرًا وعلامة، وفيه مناسبة مع المال الذي كان علامة الغنى والفخر، فأصبح علامة الذل والعذاب.

8.﴿بِهَا﴾

- **الباء :**باء الآلة؛ أي تُجعل الأموال المحماة نفسها آلة الكي.
- **الهاء :**تعود على الذهب والفضة أو الأموال المكنوزة.
- **الدلالة :**المال ليس سبب العذاب فحسب، بل يتحول إلى أداة العذاب؛ وهذا أبلغ في تصوير الجزاء من جنس العمل.

9.﴿جِبَاهُهُمْ﴾

- **المفرد :**جبهة.
- **لغويًا :**مقدَّم الرأس فوق العينين.
- **في القرآن :**لم يرد جذر «ج ب ه» إلا في هذه الآية .المعجم القرآني
- **الدلالة الأدبية :**الجبهة أبرز مواضع الوجه، والوجه موضع الكرامة والهوية؛ فكيّها يصوّر غاية الخزي والافتضاح.
- ويجوز أدبيًا أن يُلحظ أنها الجباه التي كانت تعلو استكبارًا بالمال، لكن هذا معنى تدبري محتمل، لا نصٌّ صريح في الآية.

10.﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾

- **المفرد :**جَنْب، وهو ناحية الإنسان وما بين الإبط والخاصرة.
- **في القرآن :**جاء بمعانٍ منها:
  - الجانب الجسدي: ﴿عَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.
  - موضع الراحة والنوم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾.
  - الناحية والقرب والمجانبة في مشتقات الجذر.

- **دلالته هنا :**كيّ جانبي الجسد، بما يجعل العذاب محيطًا لا يقتصر على الوجه. والجذر «ج ن ب» واسع الاستعمال القرآني بين الجانب الحسي ومعاني البعد والمجانبة .المعجم القرآني

11.﴿وَظُهُورُهُمْ﴾

- **المفرد :**ظهر، وهو خلاف البطن.
- **في القرآن :**ورد بمعانٍ منها:
  - الظهر الحقيقي: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.
  - سطح الشيء: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.
  - الركوب: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾.
  - الإهمال والإعراض مجازًا: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾.
- **دلالته هنا :**استكمال إحاطة العذاب بالجسد من الأمام والجانبين والخلف . استعمالات الجذر في القرآن

12.﴿هَٰذَا﴾

- **لغويًا :**اسم إشارة للمفرد المذكر القريب.
- **الدلالة :**الإشارة للقريب تجعل المال المحمى حاضرًا أمامهم حضورًا حسيًا: هذا الذي ترونه وتحسون حره هو ما جمعتموه.
- كما تفيد المطابقة بين المال القديم وأداة العذاب الحالية.

13.﴿مَا﴾ في ﴿مَا كَنَزْتُمْ﴾

- اسم موصول بمعنى :**الذي**.
- المعنى: هذا هو الذي كنزتموه.
- إبهامها أولًا ثم بيانها بالفعل ﴿كنزتم﴾ يوجّه الانتباه إلى نتيجة الفعل لا إلى نوع المال وحده.

14.﴿كَنَزْتُمْ﴾

- **الجذر :**ك ن ز.
- **لغويًا :**جمع المال وضم بعضه إلى بعض وإمساكه وادخاره، ويغلب أن يكون مع إخفائه أو منع تداوله.
- **في القرآن :**ورد الجذر تسع مرات:
  - فعلًا بمعنى جمع المال ومنع حقه، في التوبة.35-34 :
  - اسمًا بمعنى المال المدخر أو الثمين: كنز الغلامين، وكنوز قارون، وكنوز فرعون.
- مواضع الفعل الثلاثة كلها في سياق الآيتين 34-35 من سورة التوبة . المعجم القرآني للجذر
- **صرفيًا :**فعل ماضٍ.
- **دلالته :**الماضي يقرر ثبوت الجريمة وانقضاء زمن العمل، فلم يبق إلا الحساب.

15.﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾

- **النفس لغويًا :**ذات الإنسان وحقيقته وروحه وشخصه.
- **في القرآن :**تأتي بمعاني:
  - الذات والشخص: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.
  - الحياة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.
  - الباطن النفسي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾.
  - أبناء الجماعة بعضهم مع بعض: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.
- **اللام :**تفيد الاختصاص أو التعليل؛ أي جمعتموه ظانين أنه لمصلحتكم.

- **الدلالة البلاغية :**في العبارة تهكم مرير؛ فما حسبوه مدخرًا لمنافع أنفسهم صار مدخرًا لعذابها.

16.﴿فَذُوقُوا﴾

- **الجذر :**ذ و ق.
- **لغويًا :**إدراك طعم الشيء بالفم.
- **في القرآن :**ورد:
  - في التذوق الحسي.
  - وأكثر استعماله في إدراك نتيجة العمل إدراكًا مباشرًا: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾.
  - ويستعمل كذلك في الخير والرحمة: ﴿أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾.
- **صرفيًا :**فعل أمر.
- **دلالته :**الأمر ليس لطلب الفعل حقيقة، بل للإهانة والتقريع وإعلان وقوع العذاب؛ أي باشروا العذاب وأحسوه إحساس الذائق للطعام.

17.﴿مَا﴾ في ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

- اسم موصول بمعنى الذي.
- يحتمل المعنى:
  - ذوقوا عذاب المال الذي كنتم تكنزونه.
  - أو: ذوقوا جزاء ما كنتم تكنزون، على حذف كلمة «جزاء.«
- والجمع بين المعنيين ممكن؛ فالمال نفسه يصبح أداةً لجزائه.

18.﴿كُنْتُمْ﴾

- من «كان»، وتدل على اتصافهم بالفعل في الزمن الماضي.

- مجيئها مع المضارع ﴿تكنزون﴾ يدل على الاستمرار والتكرار والعادة، لا على واقعة عابرة.

19.﴿تَكْنِزُونَ﴾

- فعل مضارع في تركيب ماضوي: ﴿كنتم تكنزون﴾.
- **دلالته :**استمرارهم في الكنز وتجدد فعلهم زمنًا بعد زمن، فكأن حياتهم كانت قائمة على الجمع والمنع.

ثالثًا: دلالة الأسماء

تغلب الأسماء الحسية على الآية :**يوم، نار، جهنم، جباه، جنوب، ظهور، أنفس** . وهذا يحقق عدة دلالات:

1. **التجسيد :**يحول الوعيد من فكرة مجردة إلى مشهد محسوس له زمان ومكان وأجساد وأداة عذاب.
2. **الثبات :**الاسم يوحي بالثبوت؛ فجهنم والنار وأعضاء الجسد حقائق قائمة في المشهد.
3. **الشمول الجسدي :**الجمع في ﴿جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ يدل على كثرة المعذَّبين، وعلى استيعاب العذاب لمواضع متعددة.
4. **المواجهة :**اسم الإشارة ﴿هذا﴾ ينقل المال من الغياب إلى الحضور، فلا يستطيع صاحبه التنصل منه.
5. **المفارقة :**﴿لأنفسكم﴾ توهم المنفعة، لكن السياق يكشف أن ما أعدوه للنفس صار عذابًا لها.

رابعًا: دلالة الأفعال

الأفعال ترسم حركة المشهد على مراحل:

1. **﴿يُحمى﴾ :**بداية إعداد أداة العذاب.
2. **﴿فتكوى﴾ :**انتقال سريع من الإحماء إلى التنفيذ.

3. ﴿**كنزتم**﴾ **:**استرجاع الفعل الدنيوي الثابت.

4. ﴿**ذوقوا**﴾ **:**مواجهة مباشرة بالنتيجة.

5. ﴿**كنتم تكنزون**﴾ **:**كشف أن الكنز كان سلوكًا متكررًا مستمرًا.

البناء للمجهول

بُني الفعلان ﴿يُحمى﴾ و﴿تُكوى﴾ للمجهول لأن المقصود تصوير وقوع العذاب نفسه، لا ذكر من يتولى الإحماء والكي. وهذا يجعل الفعل يبدو حتميًا نافذًا.

الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

بدأت الآية بضمير الغائب:

﴿جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾

ثم انتقلت فجأة إلى مواجهتهم بالخطاب:

﴿كنزتم... لأنفسكم... فذوقوا... كنتم تكنزون﴾

وهذا **التفات من الغيبة إلى الخطاب**، وغرضه زيادة التوبيخ؛ فبعد أن عُرض مشهدهم للسامع، وُوجهوا بالحكم مواجهة مباشرة.

دلالة الأزمنة

- المضارع في ﴿يحمى، تكوى﴾ يستحضر مشهد المستقبل كأنه يحدث الآن.
- الماضي في ﴿كنزتم﴾ يثبت الجريمة.
- ﴿كنتم تكنزون﴾ تدل على الاعتياد والاستمرار.
- الأمر في ﴿ذوقوا﴾ يعلن بدء الجزاء وعدم القدرة على الفرار.

خامسًا: الإيقاع الصوتي

إيقاع الآية شديد يناسب مشهد النار والكي، ويتكوّن من:

- أصوات قوية ومتكررة مثل: الكاف والزاي والجيم والقاف والطاء: **تُكوى، كنزتم، ذوقوا، تكنزون.**

- تكرار الضمائر المتصلة:
  - ﴿جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾.
  - ﴿كنزتم لأنفسكم... كنتم تكنزون﴾.
- التوازي الثلاثي في:

﴿جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾

وهو يبطئ القراءة لحظة تعداد مواضع العذاب، فيشعر السامع باتساعه.

- تتابع الفاءات:

﴿فتكوى﴾، ﴿فذوقوا﴾

والفاء تدل على سرعة التعقيب: إحماء، فكيّ، فتوبيخ.

- التكرار الاشتقاقي:

﴿كنزتم... تكنزون﴾

وقد جعل الكنز أول الجريمة وآخر الحكم، فأحاط بالجزء الختامي من الآية.

- المدود في ﴿يحمى، تكوى، جباههم، ظهورهم، ذوقوا، تكنزون﴾ تمنح الأداء امتدادًا يناسب امتداد العذاب، بينما تُحدث الحروف الشديدة ضربات صوتية متلاحقة.

سادسًا: التفسير الموضوعي

موضوع الآية

الموضوع المركزي هو **مسؤولية الإنسان عن المال،** وأن المال في التصور القرآني أمانة ذات حق اجتماعي وشرعي، وليس ملكًا منفصلًا عن التكليف.

ارتباطها بسياق السورة

تتحدث الآية السابقة عن صورتين من الفساد المالي:

1. أكل أموال الناس بالباطل.

2. كنز الذهب والفضة ومنع إنفاق حقهما.

ثم تأتي هذه الآية لتجسد النتيجة الأخروية. فالسياق ينتقل من:

فساد اكتساب المال ← فساد الاحتفاظ به ← العقوبة به.

المحاور الموضوعية

- إدانة تعطيل المال عن حق الله وحقوق المحتاجين.
- التحذير من تحول النعمة إلى نقمة.
- بيان أن المال لا يكون نافعًا بمجرد امتلاكه.
- تقرير مبدأ الجزاء من جنس العمل.
- كشف خداع الأثرة: الإنسان يجمع المال «لنفسه»، لكنه إذا منع حقه جمع العذاب لنفسه.
- الربط بين الظلم الاقتصادي والفساد الديني والاجتماعي.

سابعًا: بقية العناصر الأدبية والبلاغية

1. التصوير الحسي

الآية لا تقول فقط: «يعاقَبون على كنزهم»، بل تبني مشهدًا كاملًا:

مالٌ مكنوز ← نار جهنم ← إحماء ← كيّ الجباه والجنوب والظهور ← خطاب توبيخ.

وهذا التصوير يجعل المعنى العقلي مرئيًا ومحسوسًا.

2. الاستعارة في ﴿فذوقوا﴾

استُعير الذوق، وهو إدراك الطعم، لإدراك العذاب والمعاناة؛ لأن الذوق تجربة مباشرة لا يستطيع الإنسان دفعها بعد ملامستها.

3. التهكم

في قوله:

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾

تهكم وتقريع؛ لأنهم ظنوا أنهم يدخرون المال لمنفعتهم، فإذا بهم قد ادخروا لأنفسهم أداة عذابهم. ومثله استعمال «البشارة» في الآية السابقة: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فالبشارة أصلها في الخير، واستعمالها في العذاب تهكم شديد.

4.المفارقة

تقوم الآية على مفارقة كبرى:

ما كان محبوبًا صار مؤلمًا،
وما كان رمز الغنى صار وسيلة العذاب،
وما جُمع لحماية النفس صار سبب هلاكها.

5.الجزاء من جنس العمل

لم يعذبوا بشيء منفصل عن جريمتهم، بل بالذهب والفضة نفسيهما. فصلة المال بصاحبه لم تنقطع، لكنها تحولت من صلة تملك وانتفاع إلى صلة إحراق وعقاب. وقد أشار ابن كثير إلى أن ما كان أحب الأشياء إليهم صار أضر الأشياء بهم في الآخرة .تفسير ابن كثير

6.الكناية

يمكن أن تُفهم ﴿لأنفسكم﴾ كناية عن الأثرة والاستئثار؛ أي إنهم جمعوا المال لأنفسهم ولم يراعوا حق غيرهم.

كما أن ذكر الجباه والجنوب والظهور يصور إحاطة العذاب بأجسادهم، فكأنه كناية عن شمول العقوبة.

7.التعداد الثلاثي

﴿جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾

هذا التعداد:

- يفصّل بعد الإجمال.

- يوسع مساحة المشهد.
- يجمع الأمام والجانبين والخلف.
- ينفي إمكان الاحتماء أو الإفلات.

وقد ورد في التفسير أن الجلد يوسَّع حتى يوضع المال المحمى عليه، بما يدل على شمول الكي واتساعه .تفسير البغوي

8.الحذف والإيجاز

في الآية حذف مقدّر في موضعين:

- قبل ﴿هذا ما كنزتم﴾، والتقدير :**ويقال لهم: هذا ما كنزتم**.
- وفي ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ يجوز تقدير :**فذوقوا جزاء ما كنتم تكنزون**.

والحذف يجعل الانتقال إلى خطاب التوبيخ مفاجئًا وقويًا.

9.التكرار الاشتقاقي

﴿كَنَزْتُمْ... تَكْنِزُونَ﴾

التكرار يثبت علة العذاب في أذهانهم، ويجعل الجريمة حاضرة في مطلع التوبيخ وخاتمته.

10.حسن الترتيب

ترتيب المشهد بالغ الدقة:

1. تحديد الزمن: ﴿يوم﴾.
2. إعداد المال للعذاب: ﴿يحمى عليها﴾.
3. تحديد مكان الإحماء: ﴿في نار جهنم﴾.
4. تنفيذ العقوبة: ﴿فتكوى بها﴾.
5. تفصيل مواضعها.

6. كشف سببها: ﴿هذا ما كنزتم﴾.

7. إصدار الحكم النهائي: ﴿فذوقوا﴾.

فالآية تتحرك من الإعداد إلى التنفيذ، ثم من التنفيذ إلى المحاكمة المعنوية.

11. مناسبة اللفظ للمعنى

اختير لفظ **الكي** بدل «الإحراق» لأن الكي:

- مباشر وشديد.
- يترك علامة ظاهرة.
- يستلزم ملامسة أداة العذاب للجسد.
- يناسب الذهب والفضة بعد تحويلهما إلى صفائح أو أجسام شديدة الحرارة.

12. البنية الدائرية

تبدأ الجريمة في السياق السابق بالكنز، وتنتهي الآية بلفظ الكنز:

﴿يكنزون الذهب والفضة﴾
ثم: ﴿كنزتم﴾
ثم: ﴿تكنزون﴾

وبذلك تصبح كلمة «الكنز» مركز المشهد كله: هي الفعل، وهي التهمة، وهي سبب الجزاء.

الخلاصة الأدبية

الآية مشهد عقابي مكثف يقوم على تحويل المعنى الأخلاقي إلى صورة محسوسة. فالمال الجامد يُبعث في المشهد نارًا، والأجساد تُذكر جزءًا جزءًا، ثم ينتقل الأسلوب من الحكاية عنهم إلى مواجهتهم. وتبلغ المفارقة ذروتها في قوله:

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾

فهم لم يكونوا، في الحقيقة الأخروية، يكنزون المال لأنفسهم، بل كانوا يكنزون **العذاب** لها. وهذا هو المحور الذي تجتمع حوله الصورة، والإيقاع، والتكرار، والتهكم، والالتفات، والجزاء من جنس العمل.

المصادر

التعبير القراني فاضل السامرائي

أدبية النص القرآني: بحث في نظرية التفسير الدكتور عمر حسن القيام

أدبية النص القرآني: بحث في البنية والأسلوب والسرد إدريس منتصر.